النظرية التنموية في فكر ابن خلدون ومالك بن نبي

الدكتور سامر مظهر قنطقجي

www.kantakji.com

ملخص المداخلة

يشكل فكر العالمين (ابن خلدون) و (مالك بن نبي) محور اهتمام كثير من الكتاب والباحثين لما يكتسبه هذا الفكر من عمق وأهمية، فأفكارهما هدفت إلى تسليط الضوء على مسيرة ا تمع الإسلامي قديماً وحديثاً ببيان مكامن الصحوة والقوة فيه وتسليط الضوء على نقاط الضعف التي تحد نشاطه وتشل فاعليته، فأعطت أفكارهما بديلاً يمكّن من الوصول إلى ما سماه (ابن نبي) مرحلة الإقلاع الحضاري.

لذلك فلا نزعم أننا نقوم بطرح نظرية تنموية جديدة، لكن نحاول إعادة تسليط الضوء على إسهامات العلامة (ابن خلدون) وفضله في هذا الاتجاه منذ أكثر من ٦٠٠ عام إضافة إلى ما أسهم به العالم (ابن نبي) في تجديد الرؤية حول قدرة ا تمع الإسلامي بالقيام بالاقتصاد العالمي بما ينفع الإنسانية بجدارة من خلال فهم الاقتصاد من خلال الإنسان لا العكس. ورغم ما بين العالمين من زمن فإن ما جمعهما من بيئة مغاربية إضافة إلى الإسلام والعروبة يفسر كثيراً من تلك الأفكار المشتركة.

لذلك لابد من تمحيص فكر هذين الرجلين العبقريين في مجال التنمية وإعادة صياغته على ضوء المعطيات الجديدة في ظل:

- فشل الكثير من التجارب التنموية التي انتهجتها الدول العربية، تلك التجارب المستقاة من التجارب الشرقية والغربية دون النظر في تاريخها العريق وبما لديها من كنوز على رفوف المكتبات.
- انتشار اقتصاد العولمة والاتفاق الدولي بضرورة معالجة مشاكل الفقر والبطالة والتلوث البيئي وتصحر وما رافق الحضارة الغربية من مشكلات من خلال تجمع دولي وهذا ما وصل إليه العالم في مؤتمر الأرض عام ١٩٩٢ وما تلاه من مؤتمرات.

وسوف تعتمد هذه الدراسة على فرضيتين هما:

الفرضية الأولى: إن الأفكار التنموية المشتركة لدى (عبد الرحمن بن خلدون) و (مالك بن نبي) تصب في اتجاه واحد.

الفرضية الثانية: يشترك المفكران في أن العوامل الأخلاقية تلعب دوراً هاماً في الاقتصاد عموماً وفي وضع نظرية تنموية خاصة با تمع الإسلامي عامة والمغاربي خاصة.

وبناء عليه فإن تصوّر العالمان للنظرية التنموية من خلال التوازن الأخلاقي والاقتصادي، أساسه الإنسان بوصفه عنصر التغيير السلبي والإيجابي إذا أُحسن توجيهه لاستغلال واستثمار موارد البلاد بشكل عقلاني.

أهمية البحث

يطرح البحث في فكر عبد الرحمن بن خلدون ومالك بن نبي وبشكل خاص ما تعلق بالنظرية التنموية عموماً والتنمية الاقتصادية خصوصاً مجموعة من التساؤلات يمكن اختصارها فيما يلي:

١. هل يوجد في فكر ابن خلدون وابن نبي نظرية للتنمية؟
٢. وما جدوى الحاجة إلى نظرية تنموية في ظل وجود العديد من النظريات التنموية؟
٣. لو افترضنا وجود نظرية تنموية لدى هذين المفكرين، فما الذي يمكن أن يجمع بينهما؟

هدف البحث

يهدف البحث إلى <u>التحقق من وجود نظرية للتنمية بشكلها العام والتنمية الاقتصادية بشكل خاص عند مفكرين رائدين من مفكري الإسلام</u>. الأول صاحب سبق في كثير من النظريات في الاقتصاد والاجتماع والسياسة وهو عبد الرحمن بن خلدون[1] والثاني رائد زمانه في الفكر النهضوي وهو مالك بن نبي.

كما يهدف البحث أيضاً إلى::

١. توضيح المصادر المتعددة التي تناولها كل من ابن خلدون وابن نبي في تناول النظرية (شرعية أو أخلاقية أو علمية).
٢. إثبات أن أفكار ابن خلدون وابن نبي وإن تباينت بعض مصادرها واشتركت في مصدرها الشرعي إنما تصب في اتجاه كو ا صالحة للتطبيق في أيامنا الحالية.

ترجع أهمية البحث عن معالم النظرية التنموية في فكر ابن خلدون وابن نبي إلى الانتكاسات التي عرفتها وتعرفها الكثير من الإيديولوجيات والحركات في الوطن العربي والإسلامي، وهو ما يستدعي أولاً إعادة نظر وثانياً إعادة صياغة لكثير من الأفكار التي حالت دون إعادة تحقيق العالم العربي والإسلامي لنهضته المنشودة في ظل الحضارات المحيطة.

وإذا كانت معظم المحاولات السابقة ذا الخصوص ليست إلا انعكاساً لأفكار جاءت من الخارج، فإن خصوصيات ا تمعات العربية والإسلامية تستدعي وضع نظرية تنموية تأخذ بعين الاعتبار جميع الجوانب النفسية والاجتماعية والاقتصادية. وبقليل من البحث سنجد أن الكثير من المنظرين العرب والمسلمين قد وضعوا أسساً لنظريات تنموية خاصة با تمعات العربية والإسلامية، (وإن كان بعضهم لم يهدف لذلك مباشرة). أما ابن خلدون وابن نبي فقد لا من منبع واحد وخصصا نظرية تنموية أكثر من غيرهما.

وزيادة في التوضيح نضرب مثالاً عملياً على ذلك، قام العالم الاقتصادي الألماني شاخت، (وهو من كبار اقتصاديي ما قبل الحرب العالمية الثانية)، بوضع الخطة الاقتصادية لألمانيا فنهضت ا من الصفر مما مكنها من دخول الحرب العالمية الثانية. كما قام هذا العالم بوضع خطة اقتصادية للنهوض بالاقتصاد

الاندونيسي وهي دولة أغنى وأكبر من ألمانيا بكثير من حيث الثروات الطبيعية والإمكانات البشرية. لكن خطته الاقتصادية فشلت. ولعل السبب يعود إلى أن شاخت قد وضع خطته على أساس معادلة اجتماعية ونفسية وعقدية خاصة بالشعب الألماني، بينما لم تراع معادلته الخصائص الاجتماعية والنفسية والعقدية الخاصة با تمع الاندونيسي.

مما سبق يظهر لنا أن أية نظرية تنموية مهما كان مصدرها لا تؤتي ثمارها إلا إذا وضعت بناءً على الظروف العقدية والنفسية الاجتماعية الخاصة با تمع التي تسود فيه، وهذا ما يعرف أيضاً بالارتباط العضوي ما بين النظرية وأسسها التي بنيت عليها. ولعل هذا يكون مفسّراً لفشل معظم المحاولات التنموية السابقة في الدول العربية والإسلامية حيث أهمل دور الجوانب النفسية، ومن جهة أخرى فقد يكون مؤشراً لعدم نجاح أية محاولات أخرى مستقبلاً إذا ما تمت صياغتها بنفس طريقة سابقا ا.

ومن الضروري الإشارة إلى أن لفظ التنمية الاقتصادية بوصفها جزء أساسي من التنمية الشاملة غير مستخدم لدى هذين المفكرين، فابن خلدون مثلاً استخدم لفظ العمارة، بينما استخدم ابن نبي مصطلح النهضة تعبيرا منهما عن التنمية[٢].

منهج البحث

انطلاقاً مما سبق، فإن فرضيات البحث تتمحور على مايلي:

١. ربما لم يشر ابن خلدون وابن نبي إلى ما يعرف (في وقتنا) بنظرية التنمية (وهو مفهوم حديث لم يستخدم إلا بعد أربعينيات القرن العشرين)، إلا أ ما وضعا معالم وأسس تلك النظرية.
٢. على الرغم من أن ابن نبي أخذ من فكر أستاذه عبد الرحمن بن خلدون، إلا أ ما في النهاية لا من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.
٣. ما تزال أفكار (ابن خلدون وابن نبي) واصفة لأحوال العالمين العربي والإسلامي وصالحة للتطبيق في وقتنا.
٤. ظهر جلياً محدودية الأفكار المستوردة من الغرب والشرق (أوروبا، والولايات المتحدة الأمريكية، والاتحاد السوفيتي، ودول المعسكر الاشتراكي) مما يستدعي إيجاد البديل.
٥. يجب أن تجمع النظرية التنموية البديلة بين المادة والروح وعدم الفصل بينهما.

لذلك سوف يتم تناول الموضوع من محورين يتناولان النظرية التنموية عند ابن خلدون وعند ابن نبي من خلال استقراء منهجيهما، ثم استنتاج نقاط التشابه والاختلاف لبناء منهج لنظرية تنموية تناسب العالمين العربي والإسلامي ا ة التحديات المحيطة ما.

ماهية مصطلح التنمية:

إن مصطلح التنمية مفهوم حديث النشأة ظهر في أربعينيات القرن الماضي ومن الصعب أن نجد له تعريفاً جامعاً مانعاً لدى كل من تناولها بالحديث[٣]، فمنهم من عرف التنمية على أسس اقتصادية وسياسية واجتماعية، ومنهم من عرفها على أسس حضارية وثقافية وأخلاقية وسيكولوجية. ولعل هذا الاختلاف يرجع إلى تباين المشارب العلمية والمنطلقات الفكرية والفلسفية.

لذلك تعرّف التنمية على أ ا: "حصيلة تفاعلات سياسية واقتصادية واجتماعية وإدارية متداخلة ومستمرة تشكل كل منها، وبدرجة متفاوتة، عاملاً مستقلاً وتابعاً في آن واحد"[٤]، كما يمكن تعريفها على أ ا: "كل ما يحيط بالجوانب المتصلة بالسكان، واستخدام الموارد الطبيعية وإدارة البيئة"[٥]. أو هي: "تلبية كافة المتطلبات الأساسية، وتوفير الرفاهية لجميع البشرية لإنجاز تطلعا ا من أجل حياة أفضل"[٦].

خصائص التنمية:

تتصف التنمية بشكل عام بمجموعة من الخصائص أهمها:[٧]

- هي عمل شامل: فهي عبارة عن تغيير شامل لجميع الجوانب والأنشطة في ا تمع من اقتصادية واجتماعية وسياسية. كما أ ا تتعامل مع ا تمع باعتباره نظاماً متكاملاً.
- هي عمل مستمر.
- هي عمل إرادي ومخطط: فهي ليست عملية عشوائية ولا تلقائية، بل تعتمد على التخطيط للوصول إلى الأهداف المرجوة.
- هي عمل هادف: أي تستهدف تحقيق رفاهية ا تمع.

المحور الأول: النظرية التنموية عند ابن خلدون

اشتهر ابن خلدون بكتابه المقدمة لأنه اختصه بعلوم لم يسبقه إليها أحد، فدرس أحوال الناس والأمم وتمعن في اختلاف أحوالهم من حال إلى حال وهذا ما يقابل الدورات الاقتصادية (في أيامنا) فحلل وتقصى وقدم نتائج سباقة ومبدعة.

أولاً: دورة الحضارة عند ابن خلدون

اختصر ابن خلدون دورة الحضارة في كلماته التالية: "إن أحوال العالم والأمم وعوائدهم ونِحلَهم لا تدوم على وتيرة واحدة ومنهاج مستقر، وإنما هو اختلاف على الأيام والأزمنة وانتقال من حال إلى حال، وكما يكون ذلك في الأشخاص والأوقات والأمصار، فكذلك يقع في الآفاق والأقطار والأزمنة والدول".

لذلك فإن للدولة حسب ابن خلدون خمسة أطوار هي:

١. طور التأسيس[٨].

2. طور الانفراد بالملك[9].
3. طور الفراغ والدعة.
4. طور القنوع والمسالمة.
5. طور الإسراف والتبذير.

وتتلخص نظريته في العمران بالعناصر الآتية:

1. الإنسان مدني بطبعه، لذلك لا بد من أن يصنع مجتمعاً يجري في نطاقه التعاون لإنتاج القوت الذي يهيئ له العيش والأدوات التي يئ له أسباب الدفاع عن حياته، وإلا انتفى وجوده ولم يحقق مراد الله في إعمار الكون الذي استخلفه فيه.
2. العمران البدوي هو أصل العمران الحضري، ولكل من ا تمعين ألوان من العادات والسلوك وأنماط حياة تفرضها طبيعة كل منهما. وهي أكثر قابلية للتطور في ا تمع الحضري مما يؤدي إلى قمة العمران ثم ما يتبع ذلك من تقلص وانحسار في أحقاب زمنية متلاحقة متكررة تكاد تكون قانوناً ثابتاً.
3. العمران والصنائع: لا يتم العمران ويرتقي إلا بوجود الصنائع متمثلة في الفلاحة والصناعة والتجارة، فعليها جميعاً يتوقف رخاء ا تمع ورفاهيته. وكلما ارتقت الصناعة، وراجت التجارة، وعم الرخاء وانتعش الاقتصاد كان لذلك أثراً في رفاهية ا تمع ورقّيه وبلوغه مراحل الترف والنعيم.
4. العلم والتعليم أمران أساسيان مرتبطان بالعمران إيجاباً أو سلباً، فحيث يزدهر العمران تكاد تكون سوق العلم نافقة، فإذا لم يتوفر العلم في ا تمع صارت الرحلة في طلبه أمراً ضرورياً، ومن ثم فحيث يزدهر العلم يرتقي العمران، والعكس صحيح.
5. حسن اختيار مواقع المدن والأمصار ضروري لاستدامة العمران، وذلك من حيث المنعة وسهولة الدفاع عنها، ومن حيث توفر الخيرات وكثرة الأرزاق كالقرب من الماء العذب، وضمان المراعي للسائمة ومراعاة وجود المزارع حولها لتزويدها بأنواع الطعام.

ثانياً: معالم وأبعاد نظرية التنمية عند ابن خلدون

يمكننا انطلاقاً من أفكار ابن خلدون الوصول إلى أهم معالم النظرية التنموية في ما يلي:

1. الإلحاح على أن الحياة مربوطة "**بالأرض**"، وهذا فيما يخص تاريخية هذه الحياة وأسس انطلاقتها، مع الإقرار أنه قد يحصل (شبه) استقلال عن الأرض في الحياة المدنية التي تعتمد كثيراً على اختراعات الإنسان.
2. التأكيد على أن العمل **الإنساني** هو (تقريباً) مصدر كل المعاش، وأنه لا معنى للخيرات الأرضية دون عمل إنساني.

المحور الثاني: النظرية التنموية عند ابن نبي

كان مالك بن بني ولا زال يمثل تعبيرا عن رؤية منهجية واضحة، فضلاً عن كونه مفكرا معرفيا أدرك أزمة الأمة الفكرية، فوضع مبضعه على أُس الداء، وهو بنيتها المعرفية والمنهجية، إنه (دون شك) واحد من أهم رواد مدرسة "**إسلامية المعرفة**" ومصلحي مناهج الفكر، ولا تزال مفاتيحه تملك قدرة توليدية في مجال المفاهيم والمنابع والعمارة الحضارية بكل امتدادا ا وتنوعا ا[١٠].

أولاً: دورة الحضارة عند ابن نبي:

يرى ابن نبي أن كل حضارة تمر عبر ثلاث مراحل هي:

- المرحلة الأولى – مرحلة النهوض[١١]: تبدأ ببزوغ فكرة دينية (تقوم بتركيب عناصر الحضارة، وتنظم الطاقة الحيوية للأفراد لتثير فيهم الحركة والنشاط بحيث يتحرر الفرد في هذه المرحلة الصاعدة من هيمنة الغريزة ويخضع لهيمنة الروح، وفي هذه المرحلة تصل "شبكة العلاقات الاجتماعية" إلى قمة كثافتها فيصبح ا تمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً.
- المرحلة الثانية – مرحلة العقلانية أو مرحلة الانعطاف: تنعطف فيها الحضارة بسبب المشكلات المادية الناتجة عن توسع ا تمع الوليد منعطفاً تكف فيه الروح عن السيطرة المطلقة على الغرائز، ويبدأ عهد العقل[١٢]. وتمثل هذه المرحلة منعطفاً للعقل. وتنقص في هذه المرحلة الفاعلية الاجتماعية للفكرة الدينية، وإن كانت الحضارة نفسها تبلغ أوجها فتزدهر العلوم والفنون فيها، ولكن مرضاً اجتماعياً يكون قد بدأ وإن تكن آثاره المحسوسة لم تظهر بعد. إن الطبيعة تستعيد سيطر ا على ا تمع والفرد شيئاً فشيئاً[١٣].
- المرحلة الثالثة - مرحلة الانحطاط والانحلال: حيث لا يعود للفكرة الدينية فيه من وظيفة اجتماعية، وتعود الأشياء كما كانت في مجتمع منحل، وتتفكك شبكة العلاقات الاجتماعية بانحلال ا تمع إلى ذرات لا روابط بينها وتنتهي ذا دورة الحضارة.

ويرى ابن نبي في هذا الصدد أن كل الحضارات الإنسانية خضعت لنفس هذا القانون الدوري المتحكم الذي تخضع له الحضارة الإسلامية بدورها[١٤].

ثانياً: معالم النظرية التنموية عند ابن نبي

أمعن ابن نبي في النظر بمشكلات التخلف المزمنة متجاوزا الظواهر الطافية على السطوح إلى الجذور المتغلغلة في الأعماق، وباحثا عن السنن والقوانين الكفيلة بتحول الشعوب من حالة العجز إلى القدرة والفعالية، ومن مشكلة الاستعمار إلى مرض القابلية للاستعمار، ومن حالة تكديس الأشياء إلى حالة البناء، ومن المطالبة بالحقوق إلى القيام بالواجب أولا، والانتقال من عالم الأشياء والأشخاص إلى عالم الأفكار التي ا نبدأ بحل مشكلة التخلف، ويجب أن نصل إلى قناعة حتمية بأن مفاتيح حلّ المشكلات هي في الذات لا عند الآخر[15].

إن مشكلة النهضة حسب ابن نبي تتحلل إلى ثلاث مشكلات أولية: مشكلة الإنسان، ومشكلة التراب، ومشكلة الوقت، فلا تكدس المنتجات لبناء نهضة، بل بحل هذه المشكلات الثلاث من أساسها[١٦].

أولاً: مشكلة الإنسان .

ثانياً: مشكلة التراب .

ثالثاً: مشكلة الوقت .

فابن نبي أقرّ بأن مشكلة الحضارة أو التنمية بمفهومنا الحالي لا تحل باستيراد منتجات حضارية موجودة، بل تستوجب حلّ مشكلاتها الجزئية. ثم عبّر عن كل منتج حضاري بالمعادلة[١٧]:

منتج حضاري = إنسان + تراب + وقت

وانتهى بالمعادلة:

حضارة = إنسان + تراب + وقت

والمعادلة لا تكون صحيحة حسب ابن نبي إلا بتوافر مجموعة من الشروط أهمها:

- الدين الذي يعتبر محرك الإنسان الذي هو بدوره جزءٌ أساسي من المعادلة.
- التاريخ الذي يمكن اعتباره مخبرا للتجارب الاجتماعية.

وبإعادة صياغة معادلة الحضارة بإدخال المحرك الأساسي (العامل الديني)، تصبح كما يلي:

حضارة = (إنسان + تراب + وقت) × العامل الديني

وانطلاقا من هذه المعادلة يتضح لنا أن المنتج الحضاري لأي شعب من الشعوب هو المادة الأولى التي يقوم عليها استمراره وأمنه القومي، وبقدر ما يملك من **طاقة بشرية** فاعلة وإرادة **طبيعية** للبقاء وقدرة على **تفاعل المنتج الحضاري وامتزاجه بعقيدة راسخة** تضمن تماسكه ووفرة عطائه. وبقدر ما يكون منتجه الحضاري أكثر وفرة وأدعى إلى البقاء والتماسك سينعكس في تحقق الأمن والاستقرار، وبذلك يتحقق الاستثمار وينبني العمران ويعمر[١٨].

وإذا كان من بين أهداف التنمية الشاملة القضاء على التبعية للغير، فلا شك أن الامتثال لما أشار إليه بن نبي سيحقق نهضة عربية وإسلامية حقيقية تضمن أمناً غذائياً على أقل تقدير. وهذا أمر مفهوم إذا ما أدركنا أن أي شعب من الشعوب ما دام تابعاً لغيره غير مستقل فإن نماءه واستقراره تابع لذلك الغير، وما دام استيراد المنتج الحضاري كما يشير بن نبي لا ينتج حضارة، وإنما ينتج ترفاً متبوعاً بإفراط أو تفريط وبالتالي فإن نتيجته تخمة اليوم ومخمصة غداً[١٩].

إن التحدي الذي يواجه الأمة اليوم ذو جانبين:

- الأول: الوعي بالأفكار السابقة، خاصة بأن استيراد المنتج الحضاري لا ينتج حضارة.
- الثاني: العمل على الاستفادة من المنتجات الحضارية الغربية، وذلك بـ :

١. بناء الإنسان الواعي الحامل لهموم أمته.

٢. توفير الشروط الملائمة لاستغلال الأراضي والاستفادة منها (بالزراعة والاستصلاح).
٣. استثمار الزمن.

ويبقى العامل المحرك للعناصر الثلاثة هو العمل الديني.

ويلاحظ أن ابن نبي قد وضع معادلة رياضية للتنمية أو للحضارة، ولذلك لن تستقيم أمور البشرية عموماً إذا أغفلت الجوانب النفسية والأخلاقية والاجتماعية والعقدية، والعنصر الجامع لتلك الجوانب هو الدين.

إن النتائج التي وصلنا إليها انطلاقاً من فكر ابن نبي بخصوص النظرية التنموية، تمكننا من وضع الأسس التي أقامها ابن نبي لبناء نظريته التنموية:

١. تعني التنمية عند ابن نبي "توفر مجموع الشروط الأخلاقية والمادية التي تتيح تمع معين أن يقسم لكل فرد من أفراده وفي كل طور من أطوار وجوده منذ الطفولة إلى الشيخوخة المساعدة الضرورية له في هذا الطور أو ذاك من أطوار نموه".
٢. يتطلب تحقيق التنمية أن "يرتفع الشعب بفكرته إلى الأحداث الإنسانية، وأن يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارات أو دمها".
٣. العناصر الضرورية التي يمكن انطلاقاً منها الحديث عن أي مشروع تنموي هي: الإنسان والتراب والوقت، كل هذا في إطار الدافع الديني.
٤. الحضارة كأحسن تعبير عن التنمية أو كنتيجة لها هي إبداع وتميز وليست تقليدا وتبعية.
٥. الحضارة هي التي تلد منتجا ا وليس العكس.

النتائج والتوصيات

يصنف ابن نبي على أنه من الذين واصلوا الجهد الخلدوني، وهو ما يجعل المفكرين يلتقيان في الكثير من النقاط، ومع ذلك فهناك نقاط اختلاف. سنركز من خلال ما سيأتي على بعض نقاط الاختلاف ثم أهم نقاط الالتقاء خاصة في جانب النظرية التنموية.

نقاط الاختلاف:

١. أرسى ابن خلدون منظورا عمرانيا في لحظة تاريخية لم تكن تسعفها ثورات معرفية كما حصل اليوم وكذلك في عصر ابن نبي. وظل الفكر الخلدوني يتيما وغريبا لم يسعفه النسق المعرفي، وظل إشارات مبهمة لم يستبصرها أهل زمانه ولم يلتفتوا إليها، وهم قد يكونون معذورون في ذلك، حتى استطاعت الثورة المعرفية المعاصرة أن تصل إلى تلك الأفكار التي أكدت على أن ابن خلدون في حدود نظرية العمران كان سابق عصره. فلم تكن لفكرة العمران أي أهمية في عصر بن خلدون أو بالأحرى لم يستشعروا لها موضوعا، في حين أكسبها النسق المعرفي الحديث أهمية جعلتها أشبه بنظرية معاصرة جديدة، انبثقت في غير زما ا. أما ابن نبي، فقد

كان مندمجا في عصره محتكا بمعطياته ومعبرا أمينا عن الذوق المعاصر، وربما قد يكون سابقا في نظراته لمشكلات مجاله على أهل مجاله.

٢. كانت نظرات بن خلدون تأملية محضة، تجاوزت النموذج المعرفي السائد. أي أنه حقق سبقا تاريخيا عالميا. بينما نظرات ابن نبي هي تأملية تستعين بمقولات ومفاهيم ومناهج ولغة أثمرها تاريخ المعرفية الاجتماعية الإنسانية. أي أنه كان سابقا ومتجاوزا اله الخاص[٢٠].

نقاط الالتقاء:

يمكن القول أن كلاً من ابن خلدون وابن نبي يلتقيان في منتهى رؤيتهما الاجتماعية والعمرانية المتعلقة بالظاهرة الحضارية (وهذا ما يرتبط بفكرة البحث) والمعززة برؤية تاريخية ونباهة سياسية يتمتع ا الرجلان اللذان ينتميان لنفس ا ال الجغرافي (أي ا ال المغاربي) المقدر له الاحتكاك بالشمال.

ولو أمعنا النظر جيداً لاتضح جلياً أن معظم أفكار ابن نبي مستمدة من فكر ابن خلدون أحياناً، ثم هي مكملة لها في بعض الأحيان (ولعل ذلك يرجع لاختلاف الزمن). لكن ما لا ينبغي إغفاله هو أن سبب توافق فكر الرجلين لا يرجع فقط إلى أن أحدهما أخذ عن الآخر، بل لأ ما يغرفان من نبع واحد هو كتاب الله وسنة رسوله ﷺ.

وكخلاصة لما سبق فإننا نقول أن كلاً من ابن خلدون وابن نبي (وعلى الرغم من اختلاف واقعيهما وعصريهما وبعض آرائهما) اشتركا في كثير من الأفكار. ولعل أهم ما اشتركا فيه هو نظر ما إلى العمران بتعبير ابن خلدون أو الحضارة بتعبير ابن نبي أو التنمية بالمفهوم الحديث[٢١]. وبشكل أدق أهمية العنصر البشري في إيجاد الحضارة (التنمية) ولعل هذا ما يعزز ثبات الفكرة القائلة بأن الجوانب العقدية والأخلاقية والاجتماعية (وهي أمور لا تتغير كثيراً بمرور الزمن) لا بد من أن تؤخذ بعين الاعتبار عند وضع أية نظرية تنموية، ويعزز هذه الفكرة إمكانية تحقيق ضة الأمة الإسلامية انطلاقاً من فكر هذين المفكرين العظيمين.

تحديات التنمية والاستفادة من دورة الحضارة:

وإذا كان تحقيق التنمية انطلاقاً من أفكار ابن خلدون وابن نبي فلا بد من مراعاة الشروط المرافقة لها، ولعل من أهمها ما أشار إليه ابن نبي هو تتبع حركة التاريخ (أو ما أشرنا إليه بدورة الحضارة)، وفي هذه الحالة ينبغي أخذ المتغيرات العالمية كالعولمة وتحرير التجارة بعين الاعتبار.

يقول د. مهاتير محمد رئيس الوزراء الماليزي[٢٢] في كتابه "ماليزيا: منظور خطة التنمية": "إن ماليزيا تدخل مرحلة أخرى هامة على مسار التنمية وضعت خلالها سياسات تتناسب مع التغيرات العالمية مثل العولمة وتحرير التجارة والتقدم التكنولوجي في مجال المعلومات والاتصالات لأن الدول التي تستطيع مواجهة تلك التحديات هي التي تستطيع إحراز مزيد من التقدم والرخاء بين الدول. أما التي لا تحقق ذلك فإ ا سوف تتخلف عن ركب التنمية"[٢٣].

وكنتيجة، فقد اتضح لنا بما لا يدع مجالاً للشك أن النظرية التنموية عند كل من عبد الرحمن بن خلدون وابن نبي تنبعان من مصدر واحد وتصبان في النهاية في مصب واحد. فمنبعها القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، ومصبها إعمار الأرض بالأخلاق الحميدة التي تكفل كرامة البشر وبنائها بالعمارة والمدنية لتحقيق التنمية الحقيقة والواقعية آخذة بعين الاعتبار خصوصية ا تمعات الإسلامية. وهذا يجعلنا نقر أنه لبناء ضة عربية إسلامية لا بد من الاستزادة في دراسة أفكارهما أكثر ومحاولة تطبيقها في الواقع تحقيقاً لهذه الغاية مع الأخذ بالاعتبار المتغيرات والمستجدات التي طرأت وتطرأ على عالمنا.

لكن كيف يمكن الاستفادة من دورة الحضارة هذه لتحقيق تنمية مستدامة للمجتمعات الإسلامية؟

لا بد أن يستوعب المسلمون سنن الله الثابتة في الكون التي يخضع لها الأفراد والجماعات؛ لأ م ذا الاستيعاب يخرجون مما هم عليه الآن من سبات حضاري لتتحول حركتهم ضمن تاريخ البشرية إلى حركة ثابتة هادفة بدل أن من كو ا حركة عشوائية تحكمها الصدف، وتوجهها الأهواء الفردية وال وات الشخصية. "فإذا ما حددنا مكاننا من دورة التاريخ، سهل علينا أن نعرف عوامل النهضة أو السقوط في حياتنا، ولعل أعظم زيفنا وتنكبنا عن طريق التاريخ أننا نجهل النقطة التي منها نبدأ تاريخنا، ولعل أكبر أخطاء القادة أ م يسقطون من حسا م هذه الملاحظة الاجتماعية، ومن هنا تبدأ الكارثة، ويخرج قطارنا عن طريقه؛ حيث يسير خبط عشواء"[٢٤].

---

١ عبد الرحمن بن خلدون ١٣٣٢- ١٤٠٦: مؤرخ وفيلسوف وعالم اجتماع عربي، ولد في تونس ومات في القاهرة. من أعلام زمانه في الإدارة والسياسة والقضاء والأدب والعلوم ولكنه اشتهر بمقدمته المشهورة باسم "مقدمة ابن خلدون" أو "المقدمة " وهي مجلد ضخم كتبها كمقدمة لكتابه في التاريخ "كتاب العبر" وقد وضع فيها أسس فلسفة التاريخ وعلم الاجتماع.

٢ يمكن القول انه وبصفة عامة فإن لفظ التنمية الاقتصادية لم يكن شائعًا في الكتابات الإسلامية الأولى، إلا أن المعنى قد استخدم كثيرًا كما أشرنا بألفاظ مختلفة منها: العمارة والتمكين والنماء والتثمير، وقد ورد بعض هذه الألفاظ ومترادفاتها في القرآن الكريم وفي بعض الأحاديث النبوية الشريفة، وظهرت بوضوح في كتابات الأئمة والعلماء وخطبهم في عصور الإسلام المبكرة والوسيطة.

٣ أ. سعيدي الشيخ، "دول الجنوب و ضرورة إعادة صياغة مفهوم التنمية"، مجلة الحقيقة، مجلة علمية محكمة، جامعة أدرار، العدد الثاني، مارس ٢٠٠٣، ص٣٦٠.

٤ محمد صادق، "إدارة التنمية وطموحات التنمية"، المنظمة العربية للتنمية الإدارية، عمان، الأردن، ١٩٨٣، ص٢٠.

٥ أ. سعيدي الشيخ، مرجع سابق، ص٣٦١.

٦ مايكل شومان، "نحو قرية عالمية: مبادرات تطوير مجتمع عالمي"، ترجمة ممد نجار، دار السر، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٠.

٧ مهدي حسن زويلف، "التنمية الإدارية و الدول النامية"، دار مجدلاوي، عمان، الأردن ١٩٩٣، ص٨-٩.

٨ يقابله حسب ابن خلدون في التاريخ الإسلامي وهو عهد الرسول صلى الله عليه وسلم، وعهد الخلفاء الراشدين.

٩ يقابله في التاريخ الإسلامي قيام الدولة الأموية إلى سقوط الدولة العباسية .

١٠ د.نصر عارف: مقال "هندسة البناء الحضاري عند مالك بن نبي" مجلة الفكر الإسلامي، نشرة تصدر عن المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ملف العدد الحضارة ذو القعدة ١٤١٤ه أبريل١٩٩٤م.

١١ حسب مالك بن نبي، يقابل هذه المرحلة في التاريخ الإسلامي المرحلة النبوية والخلافة الراشدة.

١٢ ويقابل هذه المرحلة في الحضارة الإسلامية المرحلة الأموية والمرحلة العباسية.

١٣ محمد شاويش، "مالك بن نبي وشروط النهضة"، من الموقع:
http://akhbar.khayma.com/search.php?query=&topic=73
١٤ د.إبراهيم رضا، "مالك بن نبي.. وفلسفة الحضارة الإسلامية الحديثة"، ٢٠٠٣/١١/٠٢، موقع إسلام اون لاين:
http://www.islamonline.net/arabic/arts/2003/10/article13.shtml
15 http://www.arabiancreativity.com/alaskri.htm
١٦ ملك بن نبي، "شروط النهضة".
١٧ أنظر: مالك بن نبي، "تأملات"، ص ١٩٥ و بعدها.
١٨ د. مبروك المصري، "مراعاة البعد الحضاري لتحقيق التنمية"، مجلة الحقيقة، مجلة علمية فكرية محكمة، العدد الثاني، مارس ٢٠٠٣، جامعة أدرار، ص٣٦٩.
١٩ نفس المرجع السابق، ص٣٧٠.
٢٠ إدريس هاني، "الأهمية التاريخية لفكر بن نبي"، الموقع الرسمي لمجلة الشهاب، أفريل ٢٠٠٦.
http://www.chihab.net/modules.php?name=News&new_topic=20
٢١ لو نظرنا مثلاً إلى دورة الحضارة عند مالك بن نبي لوجدناها هي نفسها لدى ابن خلدون (فهما تتطابقان تماماً عندما ندمج الأطوار الثلاثة الأخير لدى ابن خلدون في طور واحد لأنها في الحقيقة كذلك –أي تمثل طوراً واحداً- وهو الطور الذي سماه بن نبي مرحلة الانحطاط و الانحلال، بالإضافة كما أشرنا إلى أهمية العنصر البشري في التنمية.
٢٢ لا شك أن لتجربة الماليزية في التنمية من أنجح التجارب و التي يحتذى بها، كما أن لمهاتير محمد رئيس الوزراء دوراً أساسياً في نجاحها.
٢٣ د.محمد محاضير، "ماليزيا منظور التنمية"،
www.mojat.com/modules.php?name=Content&file=top-raeds نشرت بتاريخ 14-12-2004.
٢٤ مالك بن نبي، "شروط النهضة".